عن لغة الطفل العربي المعاصر*

أ.د/عبد العزيز المقالح
الجمهورية العربية اليمنية
عضو المجمع اللغوي – القاهرة.
عضو المجمع اللغوي – دمشق.

مقدمة:

في كتابي: "الوجه الغائب.. دراسات عن أدب الطفل العربي، دار المسيرة.-بيروت، الطبعة الأولى، عام 1985م" تناولت جوانب من معاناة الطفل في هذا الوطن الكبير الذي لم يستقر على حال منذ وطأت أرضه أقدام المحتلين الأجانب.وحين أهدت قراءة الكتاب في طبعته الثالثة لم أجد أن شيئا في الواقع العربي وفي واقع الطفل خاصة قد تغير أو أدركه قدر من التطور الذي تفرضه سنة الحياة وضرورة التحولات التي هي من طبيعة البشر الأحياء الحالمين بالجديد والأجد.

إذ ما يزال الطفل يعاني من خلال محاولاته الدؤوبة لاكتساب لغته الأم بالطرق التقليدية المتوارثة عبر الأجيال، كما أن محاولات التجديد في مناهج التلقي ماتزال تتعثر، أم عن حال الكتاب المدرسي وهو دليل الطفل لغويا ومعرفيا فحدث ولا حرج، إذ مايزال كما كان في أربعينيات القرن وخمسينياته إن لم يكن قد تدهور وناله الكثير من الضعف و الارتجال.

---

*بحث معد للمشاركة في الدورة(82) لمجمع اللغة العربية بالقاهرة مارس 2016م

في هذا البحث المتواضع، وفي إطار المحور الأول من المحاور المقترحة من مجمعنا الرشيد للدورة(82) حاولت أن أسهم قدر الاستطاعة بما ظننته مفيدا ومتصلا بموضوع المحور الأول عن الطفل ولغته.ومن الله تستمد العون و التوفيق. 27 /01/ 2016م.

1 -واقع الطفل العربي:

" الطفل هو الرجل" تعبير موجز ودقيق عما سيكون عليه طفل اليوم في المستقبل القريب لكن، وحتى يتسنى لهذا الطفل أن يكون رجلا، لا بد أن تتوفر له الرعاية الكافية من حاضنات ثلاث، وهي:

أولا: البيت.

ثانيا :الشارع.

ثالثا: المدرسة.

والسؤال هو: هل يتوفر في هذه الحاضنات العربية المستوى المطلوب لمساعدة الطفل على اجتيازه مرحلة الطفولة و الانتقال إلى الرجولة كما ينبغي أن تكون صحيا وثقافيا ونفسيا؟

وانطلاقا من الظروف العربية الراهنة فإن الإجابة عن سؤال مهم كهذا ستكون بالسلب لا بالإيجاب مع استثناءات لا تكاد تذكر في بعض البيوت وبعض المدارس. وهي إجابة صحيحة على كبار المسؤولين العرب أن يتوقفوا عندها طويلا فهم وحدهم المكلفون و القادرون على إنتاج نشء واع وقادر على تحمل المسؤولية في المستقبل ومواجهة التحديات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية.كما على القادة التربويين أن يقفوا عند تلك الإجابة وأن يتساءلوا بمصداقية وأمانة عن دور المدرسة وهل تؤدي الحد الأدنى من المهمة الموكلة إليها إبتداءا من المعلم وانتهاء بالمناهج التي تعبر عن روح العصر واحتياجاته وما تنتظره الشعوب على أيدي أبنائها في الحاضر و المستقبل.

ولا يصح ونحن نتحدث عن واقع الطفل العربي وأحلامنا العالية في الدور الذي ينتظره أن لا نقرأ هذا الواقع كما هو في غالبه الأعم، حيث يلعب الفقر من جهة و التخلف الثقافي و العلمي من جهة ثانية دورا مفزعا يجعل من الصعب على طفل يعاني من مستوى المعيشة المتدني في أسرته أن يحقق بعض ما يتحقق لأمثاله ليس في الدول المتقدمة بل في الدول المسماة بالنامية التي نجح بعضها في تأسيس قاعدة علمية عامة يقوم عليها كيان التعليم وإعداد أجيال قادرة على الوفاء بالتزاماتها نحو أوطانها ومواطنيها.وفي شرق آسيا نماذج جيدة وصالحة للاقتداء، فقد تخلصت تلك الشعوب مما تراكم في حياتها من غبار التخلف والاعتماد على الغير وبدأ أبناؤها يخوضون عمليات التحديث و التغيير في أكثر من ميدان واتجاه، واستطاعوا أن يضمنوا لبلدانهم المكانة اللائقة بها بين بقية البلدان و الأمم.

وكان وما يزال علينا أن نتنبه إلى أن ما حدث في تلك الشعوب لم يكن ضربة حظ أو بفعل خلطة سحرية اكتشفها قادة تلك الشعوب في كتاب من كتب حكماء الشرق القديم، وإنما جاء ذلك النهوض المدهش من خلال التخطيط المدروس بعناية فائقة ومن اعتماد صارم لمناهج التربية وقوانين الرعاية للطفولة و الأطفال و النظر إلى الزمن القادم من خلال ما يمكن إبرازه و التركيز عليه في مواهبهم الخلاقة،ولا غنى لأقطارنا العربية من استيحاء تلك التجربة و الأخذ بما أنجزته من أساليب مكنت الأجيال الجديدة من تجاوز الأخطاء و الشروع في بناء حضارة جديدة على أنقاض حضارات بائدة شكلت نموذجا في عصرها وأن الأوان لكي تتجدد وتأخذ ملامح العصر الجديد وتعبر عن تطلعاته و ثقافته وطموحاته.

وسؤال آخر يأتي في هذا الصدد هو: هل صرنا نحن العرب جاهزين للتغيير و الإفادة مما حققه الآخرون الذين كانوا إلى وقت قريب في حال

يشبه حالنا أو أسوأ منه؟ وفي اعتقادي أنه بعد أن أوصلنا "الطناش" إلى ما نحن فيه من تخلف وسوء منقلب علينا أن نبدأ من الصفر مستوعبين تجارب الآخرين ومتجاوزين الأخطاء و المحاذير التي كشفت عنها محاولاتنا السابقة في هذا الصدد وغيره ومن أهم ما يتعين علينا في هذا الصدد هو الاهتمام الجاد بالطفل الذي سيغدو رجلا فنتنبه إلى ما يتعين علينا من حرمان منقطع النظير في غذائه وكسائه وفي فقدانه لأبسط معاني التنشئة السليمة، وهذا الطفل الذي يمثل ملايين الأطفال هو الذي يراد منه أن يحمل علم التقدم و التطور ولن يكون غريبا إذا انتبهنا –من واقع التجربة الشخصية- إلى أن 90 % من مدارس الإعدادية و الثانوية في قطر عربي (لا أود ذكر اسمه) بلا مراحيض ولم تعرف الكهرباء.

وفي مناخ عربي هذه صورته وهذا واقعه، كيف لنا أن نتحدث عن لغة الطفل قبل أن نتحدث عن الخبز الذي يتناوله الطفل، وعن الماء الذي يشربه، والبيئة التي يتحرك في إطارها؟ وكلها لا تشجع بحال على إعداد إنسان المستقبل.

وحتى لا استرسل في وصف قتامة واقع الطفل العربي أعود قليلا إلأى ما كان عليه الوضع في بعض الأقطار العربية التي كنا نصفها نحن أبناء الأقطار النائية بالمتقدمة، فقد كان التعليم فيها متطورا وحديثا إلى حد ما، وكان الأطفال يجدون رعاية خاصة وكانت المدارس تقدم للتلاميذ وجبة أو وجبتين تنمي أجسادهم وعقولهم بحيث يمكن للأطفال الذين لا يجدون غذاء كافيا في منازلهم أن يجدو في هذه الوجبات تعويضا مناسبا، لكن هذه الحال لم تدم فقد تزايد عدد التلاميذ وتزايدت إعداد الفصول وتم إلغاء التغذية المدرسية وبدأ مع إلغائها تدهور مستوى التعليم وبدت على التلاميذ حالات من الشحوب و الهزال وتحقيق بذلك ما يشبه العدل في الحرمان من ذلك بين تلاميذ مدارس أغلب الأقطار العربية.

2 -الطفل و اللغة:

يكتسب الطفل السوي لغته الأولى من أمه هذا الملاك الذي تتسرب كلماته المصحوبة بالمناجاة الحنون مع الحليب إلى روح الطفل وبدنه.ثم يأتي دور أفراد عائلته ومن ثم أقرانه في الحارة و الشارع ويتجسد هذا التأثير عن طريق المحاكاة و الاجتهاد في تقليد طريقة النطق.ويشير أحد الكتاب المهتمين بلغة الطفل إلى أهمية دور المحاكاة في إجادة النطق واكتساب المفردات معتمدا في ذهب إليه على بعض التجارب التي توصل إليها عدد من علماء اللغة الأجانب، مستظهرا على ذلك بما أورده في إحدى الفقرات من كتابه تقول:" وتشمل المحاكاة النشاطات اللغوية و الحركية وكثيرا من سمات الشخصية.ويرى : بريبر" أن المحاكاة أهم عامل في تعلم اللغة عند الفرد وأنها المرحلة الحساسة في هذا التعلم.

ويرى" اشترن" : أنها العامل الأول الأكبر في تعلم اللغة.ويرى البعض أن المحاكاة تبدأ في الربع الأخير من السنة الأولى أو آخر السنة الأولى وأوائل السنة الثانية.أما " كاول بوهلر " فيرى أننا لا نستطيع تمييز ظهور المحاكاة إلا في منتصف السنة الأولى إلا أن البعض يرى أن المحاكاة قد تبدأ بعد الشهر التاسع[1].

وأيا كان الاختلاف الدائر بين علماء اللغة حول الفترة التي يبدأ معها الطفل السوي في محاكاة الآخرين بوصفها خطوة أولى نحو اكتساب اللغة فإنه عندما يدخل إلأى المدرسة يكون قد اختزن عددا ليس بالهين به من المفردات تمكنه من فهم الدروس الأولية تلك التي يتلقاها التلاميذ في الحضانة أو الفصول الأولى من المدارس الابتدائية.وهكذا ما يكاد يتجاوز مرحلة الطفولة حتى يكون قد استوعب قدرا من المفردات تؤهله للتفاهم مع مجتمعه كأي واحد من أفراده الذين يتكلمون لغة واحدة ويعبرون بها عن احتياجاتهم اليومية وعن أحلامهم و أشواقهم،ومهما اختلفت

العادات و التقاليد و الثقافات فإن تلك –في تصوري- هي المعالم الرئيسية للمرحلة التي لا بد للطفل من أن يجتازها في بداية حياته لاكتساب لغته القومية وامتلاك أول قواعدها بالتدريج عبر مراحل الطفولة التي يجتهد البعض إلى تقسيمها إلى أربع مراحل أو أطوار هي:

أولا: مرحلة الميلاد.

ثانيا: مرحلة الطفولة المبكرة.

ثالثا: مرحلة الطفولة المتوسطة.

رابعا: مرحلة الطفولة المتأخرة[2].

وكثيرة هي الوسائل التي تساعد الطفل على اكتساب لغته وزيادة حصيلته من مفرداتها ومن أهم تلك الوسائل " الحكاية" سواء منها ما يروى أو يقرأ، فالطفل كما يثبت الواقع وتؤكده الدراسات العلمية يقبل على الحكاية بشغف ويحاول أن يحتفظ بتعابيرها البسيطة و بمفرداتها التي ستزيد من مخزونه اللفظي، وتنمي ثروته اللغوية وقدرته التعبيرية مثل الحكاية، القصائد الشعرية و الأناشيد التي يراعي في كتابتها سن الطفل ومستوى وعيه، وسنتوقف بداية عند تأثير الحكاية في لغة الطفل العربية بالكثير من الحكايات المؤلفة عربيا و المترجمة عن اللغات الأخرى، وقد كان المرحوم **كامل كيلاني** أول كاتب عربي أعطى لثقافة الطفل اهتماما خاصا وأمده بوفير من الحكايات المبسطة و المختارة من عيون الأدب العربي و الغربي ووضع بين يديه ترجمات باللغة العذوبة لنماذج من المسرح الشكسبيري. ثم اقتدى به آخرون من الكتاب العرب الذين قدموا للطفل العربي مكتبة تزخر بالمؤلف و المترجم وفي طليعة هؤلاء الكاتب الراحل عبد التواب يوسف الذي وهب عمره كله للطفولة و الأطفال ولسد النقص القائم في حياتنا إزاء الملايين من أطفالنا الذين حرمتهم ظروف التخلف المتلاحقة من أبسط وسائل المعرفة و التثقيف المبكر.

لقد تفوق كاتب الأطفال عبد التواب يوسف على نفسه وعلى غيره في عدد الكتب التي أصدرها عن الأطفال و الطفولة، إذا بلغت في آخر إحصاء إلى ألف كتاب أغلبها من تأليفه و القليل منها فقط من ترجمته. وفيها الديني و التراثي و التاريخي و العلمي بالإضافة إلى الخيالي والخرافي.وأعطى اهتماما خاصا بحياة الأنبياء و السير الشعبية وقصص الحيوانات. كل ذلك لكي يتمسك الطفل العربي بتاريخه و ليتمكن من إتقان لغته و الانفتاح على موروثها العلمي و الأدبي و الفكري. بل إننا نجد هذا الكاتب في واحدة من أهم الدراسات تحت عنوان " **خريطة أدب الأطفال**" يرفع صوته صارخا عن ضآلة ما ينشر في الوطن العربي للطفل مقارنة بما ينشر في الدول الأخرى حيث يقوا:" إن كم الكتب الأدبية الصادرة للأطفال ضئيل إلى حد بعيد، ولا يكاد يذكر، وإن العناوين الجديدة قليلة إلى درجة مزعجة، وعدد النسخ المطبوعة من هذه العناوين ما بين 3000 و5000 نسخة، على أن عدد الأطفال القراء على أربعين مليونا، متناثرين في القرى و البوادي، قد لا يصلهم كتاب واحد...ولدينا من الإحصائيات ما يؤكد المجاعة الأدبية التي يعيشها طفلنا العربي، إذ يصدر في أمريكا قرابة خمسة آلاف كتاب سنويا، بينما الوطن العربي الذي لديه تقريبا عدد أطفال أمريكا فهو لا يصدر أكثر من 5 % من هذا القدر. وأمة لا تقرأ لا تستهلك من ورق الطباعة أصلا إلا 10 % مما تستهلكه بلجيكا التي لا يزيد عدد سكانها عن 10% من الأمة العربية"[3].

ويأتي الاهتمام بتوسيع مكتبة الطفل العربي من أهمية دورها في تأسيس المعرفة الشاملة وزيادة الحصيلة اللغوية ليس لدى الأطفال فحسب، وإنما لدى الكبار أيضا. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أمة "**اقرأ**" تكاد لا تعرف القراءة قياسا بالأمم الأخرى كما لم يأخذ الكتاب مكانته بعد حتى في صفوف أولئك الذين نالوا تأهيلا جيدا في الجامعات و المعاهد و الدليل

على ذلك الإشارة في الفقرة السابقة التي تشير إلى أن ما يطبع في الوطن العربي من كتب في مختلف المعارف لا يشكل سوى نسبة ضئيلة بالقياس إلى عدد المؤهلين للقراءة و القادرين على متابعة كل ما ينشر.

3 -القصائد و الأناشيد:

من الواضح أن المراد بالقصائد و الأناشيد التي سيتم الحديث عنها في هذا الحقل البحثي هي تلك التي يكتبها الشعراء للأطفال وتساعد على تنمية لغتهم و التطوير في تعابيرها. وكثيرا هم الشعراء المعاصرون الذين كتبوا هذا النوع من الشعر لكن القلة منهم هي التي عرفت كيف تنفذ إلى وعي الطفل وتتمثل استعداده للتفاعل مع ما يكتبه من قصائد و أناشيد، وقد كان أمير الشعراء أحمد شوقي أول من فتح باب هذا النوع من الكتابة كما تجلى ذلك في عمله الشعري المسمى" ديوان الأطفال" وإن كانت قصائده القائمة على الحكاية و المتضمنة نماذج من الحكمة و الإرشادات التربوية و الأخلاقية صعبة التلقي لدى الأطفال في سنوات عمرهم المبكرة، إلا أنه يحسب له فضل السبق في هذا المضمار إذ كانت تجربته بمثابة المقدمة لعدد من الشعراء الذين جاءوا من بعده وعرفوا كيف يردمون الهوة التي حالت دون فهم الأطفال للغة قصائده رغم محاولته تبسيطها.

وسأكتفي هنا بالوقوف عند نماذج محدودة لشاعرين كبيرين هما سليمان العيسى الذي وهب جانبا كبيرا من حياته وشعره للطفولة والأطفال، وجودت فخر الدين الذي بدأ بعد أن وصل ذروة نضجه الشعري يكتب قصائد ومقطوعات يجعل الطفل منذ المراحل الأولى لطفولته يدرك أهمية اللغة و يتحسس جماليات معانيها، وكثيرة هي الأعمال الشعرية التي أنجزها الشاعر الكبير **سليمان العيسى** ومنها ماهو للأطفال الصغار وللصبيان وما هو للفتيان، وفي كتابه" كلمات خضر للأطفال" يطلعنا بمقدمة على درجة كبيرة من الأهمية يشير فيها إلى دور الكلمة في تفتح

ذهن الطفل على جمل وواقع في الحياة و" أن الكلمة الحلوة الجميلة التي نضعها على شفتيه هي أثمن هدية نقدمها له، لكي يحب الأطفال لغتهم، لكي يحبوا وطنهم،لكي يحبوا الناس، و الزهر، و الربيع و الحياة"[(4)].

وفي هذه المقدمة نفسها يضع الشاعر الكبير قواعد أربع لما يكتبه من شعر للأطفال هي، بعناوينها و بعد حذف تفاصيلها، على النحو الآتي:

1)اللفظة الرشيقة الموحية.

2)الصورة الشعرية الجميلة.

3)الفكرة النبيلة الخيرة.

4) الوزن الموسيقي الخفيف الرشيق[(5)].

هذه القواعد الذهبية الأربع بتفاصيلها الأكثر توضيحا ودقة تصلح منهجا لكل شاعر موهوب يريد أن يشارك في إثراء مكتبة الطفل العربي التي ما تزال حتى الآن تعاني من الفقر، ويعاني معها الطفل مجاعة روحية وثقافية في وقت يمكن فيه أن يعيد الشأن الثقافي ميسورا لكل الأجيال لو وجد التنظيم وحضرت المسؤولية، وسيجد الباحث صعوبة في ما يختاره من قصائد و أناشيد سليمان العيسى المكتوبة للأطفال وبما أن كتاب " كلمات خضر للأطفال" بين يدي الآن فإن أنشودة" الأرجوحة" تشدي لاقتطاف أربعة أبيات منها هي :

طيري بنا طيري   مثل العصافير
يا مركب الأحلام   يابسمة النور
طيري إلى الوراء   طيري إلى الأمام
أحلى من الأقسام   بين الأزاهير[(6)].

وهذه أنشودة أخرى بعنوان " **فلسطين داري**" و يبدوا أنها كانت شائعة في أكثر من مدرسة عربية:

فلسطين داري ودرب انتصاري

تظل بلادي هوى في فؤادي

ولجأ أبيا على شفتيا

وجدة غريبة بأرضي السليبة

تبيع ثماري وتحتل داري(7).

ومن أنشودة "العيد" نقتطف هذا المقطع:

ثياب جديدة وجوه سعيدة

أقبل ماما أقبل باب

وهتف عيد سعيد سعيد(8).

إن هذا المستوى من اللغة البسيطة و العميق في الوقت نفسه يمكن الطفل من التقاط المفردات بسهولة، وهذا ما تسعى إلى تحقيقه القصائد و الأناشيد التي تراعي لغتها وموضوعاتها إدراك الطفل في سنوات عمره المختلفة.

وثمة نماذج أخرى من ديوان " الأطفال" للشاعر جودت فخر الدين الشاعر الذي استطاع أن يحقق للنص الشعري المكتوب للأطفال نقلة نوعية يكون معها النص أقرب إلى فهم الطفل وأكثر تفاعلا مع لغته المحدودة:

في حكمة الكبار

الجارقبل الدار

وبيتنا بعيد

منعزل وحيد

في قرية وديعة

ربوعها بديعة

جيراننا الطيور

و النبع والزهور[9].

يكاد السطر أو الشطر في هذا النص يتألف من كلمة واحدة فقط، وفيه تسهيل للطفل على النطق من ناحية و إحساسه بالإيقاع من ناحية ثانية.

وهذا التصرف يشكل –كما سبقت الإشارة- خطوة تطويرية في مجال الشعر الخاص بالأطفال، وتتعزز هذه التجربة في أكثر من نص منها ما جاء:

في الساحة الكبيرة

نافورة غزيرة

ترسم في الفضاء

شجيرة من الماء

يهفولها الحمام

وتخفق ال أنسام[10].

وكل محاولة جادة في هذا المجال تعمل على تقريب الطفل من لغته ومن موضوعات عصره وتحيطه بألوان من المعرفة الأولية بالأفكار و الأشياء الموجودة في عالمه الصغير:

عصفورة من ورق

لونتها بالأزرق

أطلقتها للأفق

هوت ولم تزقزق[11].

كما نجد هذا الديوان قصائد يتحدث فيها الطفل عن لغته العربية وإعجابه بأنغامها وأحلامها واعتزازه بأمجاده وبموروثها الأدبي و الفكري

والعلمي،ولا حد للأثر الذي تتركه مثل هذه النصوص في نفوس الأطفال وما تنطوي عليه من إيحاءات لا تحمي تظل عالقة بالفكر و الوجدان إلى آخر العمر.وهذه الإشارة تحض على عدم الاستهانة بما يكتب للطفل من أدب يلتزم البساطة التي هي أصعب من التعمق على حد ما ذهب إليه توفيق الحكيم عندما بدأ في وقت متأخر من حياته يسجل بعض الحكايات للأطفال [12].

4 -التلفاز و مجلات الأطفال:

عرف الإنسان المعاصر أشكالا من وسائل الإيصال كالإذاعة والصحافة و التلفاز لكن هذا الأخير يبقى أكثرها تأثيرا واستحواذا على المشاهد فقد جمع بين الصوت و الصورة، بين اللون و الضوء، بين الحركة و الكلمة، وبذلك تفوق على كل الوسائل وصار تأثيره أعمق وأقوى لا سيما على الطفل الذي يقف إزاء ما يثبته من برامج و مسلسلات مبهورا ومستمتعا.

وقد نجحت هذه الوسيلة الإيصالية في استغلال كل الطاقات الفنية في تقديم الصورة الواقعية المبسطة و المثيرة للدهشة عن الإنسان والأرض والجبال و الشمس و البحر جنبا إلى جنب.كم هائل من الحكايات الخرافية المتخيلة ما يجعل الطفل مشدودا إلى هذه الوسيلة بكل حواسه ملتقطا قدر إمكانياته الكلمات المنطوقة مرتبطة بواقعها وأحداثها مكررا لها ومبتهجا بقدرته على امتلاكها في صيغتها العربية الفصحى: الولدان يلعبان. كتابان اثنان...إلخ.

ويلاحظ أن بعض المعنيين بالطفل وثقافته لا يفضلون أن يرى الطفل المسلسلات على التلفاز لما في ذلك من حد لتصورات الطفل ومحاصرة قدراته التخيلية عن " **التطواف**" بذهنه ورسم صور رمزية تختلف عما تقدمه وسائل الإيصال المرئية من مناظر ومواقف تحد من طاقة التخيل وهي ملاحظة لا تخص الأطفال فقط وإنما الكبار أيضا الذين كانوا عن

طريق السماع وحده يتخيلون أماكن وأشخاصا كل حسب قدراته الذهنية واتساع مساحة الخيال عنده.ومع ذلك يبقى للتلفاز تفوقه على كل وسيلة إيصال تحاول منافسته واستقطاب مزيد من الجمهور الذي يتزايد أعداده مع مرور الزمن وفي المقدمة الأطفال الذين يحبون كل ما يقدمه ويتفهمون عن طريق حاسة البصر عوالم على درجة عالية من البراعة في التخيل.

كما يلاحظ آخرون خطورة ما يقدم في التلفاز من برامج تتناسب مع أهداف المجتمع العربي وقيمه من مسلسلات أجنبية تصل إلى 90% مما تقدمه التلفزة العربية وما يصاحبها من أخطاء في النطق والأداء وهي تؤسس للغة تنافس لغة المدرسة وتبرزها. إن القدوة تكمن في " رامبو" و" غراندايز" و" فارس الفضاء"...إلخ، ومشاهد العنف المتبادلة بين "توم" و"جيري" بداية، والواقع الضاغط على الطفل نفسه، وما يسببه له من قهر متتابع، يضعه في عالم التلفاز هذا ويجعله مسكونا بمفرداته العنيفة"(13). حتى لقد وصل الحال بإحدى التربويات الأجنبية إلى التساؤل:" هل هذا تلفزيون أم مخدرات؟ وانتهت إلى انه مخدرات تعود الطفل على الاسترخاء العقلي، وتبعده عن التركيز والفهم و الخبرة الخيالية".

هذه السلبيات و سلبيات أخرى ليس هنا مجال الحديث عنها تضاعف من مسؤولية القائمين على هذه الوسيلة التي يفوق تأثيرها كل وسائل الإيصال التي فقدت بريقها وأهميتها بهد ظهور التلفاز.

5 -مجلات الأطفال:

أما عن مجلات الأطفال وهي المصدر الثاني المهم بالنسبة للأطفال بعد التلفاز طبعا، فإن دورها في الوطن العربي خاصة محدود ولا يتعدى انتشارها بعض الأحياء أو بالأحرى بعض البيوت في الأحياء المتقدمة، ورغم موجة التنافس التي بدأت منذ سبعينيات القرن الماضي لدى بعض الأقطار العربية في إنتاج مجلات تعنى بثقافة الأطفال و تربيتهم وإعطائهم

جرعات لغوية تساعدهم على الاهتمام باللغة القومية" لغة الأم" فإن ذلك التنافس بدأ في الفتور ثم الهبوط، ولم يبقى في الوطن العربي كله من مجلات الأطفال الجادة سوى عدد محدود لا يوازي عدد أصابع اليد الواحدة و بعض المجلات –إن لم تكن كلها- لا تخاطب أطفال المرحلة الأولى أو الثانية من مراحل الطفولة وإنما تتجه إلى أطفال المراحل الأخيرة بما يستخدمه كتابها من ألفاظ وتعابير تعجز لغة الطفل عن استيعابها و الإفادة منها، وقد يكتفي بعض الأطفال بتقليبها لتأمل الرسوم ليس غير.

لقد تكاثرت الإشكاليات المتعلقة بالطفل عامة و بالطفل العربي خاصة وليس موضوع لغة الطفل الإشكالية الوحيدة فقد برزت-وفي الوقت الراهن بوجه أخص- أمور أخرى بالغة التعقيد، منها على سبيل المثال" الكتاب المدرسي" هذا الثابت الجامد الذي تغيرت الدنيا و لم يتغير بل ظل على ما كان عليه منذ عقود بشكله و لغته و مضامينه المتحجرة و ما يمثله من هوة سحيقة تفصله عن الطفل و تفصل الطفل عنه، ذلك أن إعداد هذا الكتاب ظل موكولا إلى بعض المدرسين من محدودي الثقافة الذين لا علاقة لهم من قريب أو بعيد بعلم النفس، الذي صار أساسا في معرفة نفسية الطفل ومدى إدراكه للمواد المعدة لفهمها أو حفظها.ولعله من الخطأ النظر إلى الطفل كما لو كان عجينة في إمكان أيدينا أو أصابعنا أن تشكله وفقا لرغباتنا نحن أو لما يريده واضعو الكتاب المدرسي وبما يجمعون فيه من غث الكلام المصحوب بمعلومات أكل الدهر عليها وشرب.

ومنذ وقت قصير لفت انتباهي مقال يتصدر مجلة العربي الشهيرة بعنوان" كتاب الطفل...وكتابة المستقبل!" يتناول فيه كاتبه مشكلة المتلقي الصغير وهو الطفل مع الكتاب المدرسي ويرى أننا" في عالم سريع التغير، تتوارى فيه الأحلام القديمة الكبيرة، يفوتنا أن نكرس الحاضر لتأسيس أحلام جديدة ممكنة التحقيق في المستقبل، وكتاب الطفل العربي هو أحد

الممكنات التي تبدو ضئيلة للبعض وهامشية، لكنها بلا جدال ذات مردود مستقبلي هائل"(14).وبدون إصلاح الكتاب المدرسي من نواح عديدة لن يتغير شيء في حياتنا، ولن يتمكن رجل المستقبل،الذي هو الآن طفل، من عبور الهوة السحيقة التي تفصلنا عن الآخرين، ومادام" الكتاب المدرسي أصبح عبئا على عقل الطفل و ليس وسيلة لتنمية عقل هذا الطفل"؟كما يؤكد صاحب المقال فإن شيئا جديدا لن يحدث لا على مستوى اكتساب الطفل للغته العربية كما ينبغي، ولا على مستوى التحصيل العلمي و الإبداعي.

الهوامش:

(1)عبد الكريم الحلابلة، عفاف اللبابيدي: تطور لغة الطفل، دار الفكر-عمان، ص31.

(2)د.هادي الهيتي: ثقافة الأطفال، عالم المعرفة، العدد123:ص31.

(3)ثقافة الطفل واقع وآفاق، مجموعة دراسات لعدد من الكتاب: دار الفكر دمشق، دار الفكر المعاصر-بيروت، ص55.

(4)سليمان العيسى: كلمات خضر للأطفال، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية-دمشق،2005م، ص7.

(5)نفسه: ص9.

(6)نفسه:ص22.

(7)نفسه:ص30.

(8)نفسه:ص40.

(9)د.جودت فخر الدين:ثلاثون قصيدة للأطفال، دار الحدائق-بيروت، فائزة بجائزة الشيخ زايد بن سلطان، عام1914م.

(10)نفسه:ص10.

(11)نفسه:ص18.

(12)ثقافة الطفل واقع وآفاق،ص157.

(13)ثقافة الطفل، ص 151.

(14)د.سليمان إبراهيم العسكري: افتتاحية مجلة العربي، العدد(533) عام 2003، ص8.